الحقائق العليا فى الحياة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

الإيمان · الحق · الجمال · الخير · القوة · الحب

« بعض الألفاظ إذا نطقت بها تتحرك لها فى نفسى دنيا كاملة ! »

١ — الإيمان

أعجب لفنان لا يؤمن وهو داعماً يقلب حواسه فى الطبيعة !

ألا يحس الرباط الجامع بينها وبين قلبه ؟

أهو يعجب إن رأى صنعة إنسانية تحاكى نماذج الطبيعة ، ولا يعجب من النماذج الحية نفسها ، التى تقذفها الأرحام وتتفتح عنها الأكمام ، وتنسجها ظلمات الأرض ، وتصبغها أضواء السماء ؟

ألا يعجب من يقظة القوانين الداعمة الصيانة للذرة والمجرة وما بينهما ؟

أنا أدعو كل ملحد إلى شىء واحد : أن يعيد النظرة مرة ثانية فى أبجدية الحقائق ، وأن يستحضر روح طفل يفتح عينه لأول مرة على الحياة فيرى فيها كل شىء جديداً : الحياة الماثلة فى الطبيعة المجردة لا فى الطبيعة « المحفوظة فى علب » كما يعبر الأستاذ توفيق الحكيم

أدعوه أن يترك الألفاظ الاصطلاحية التى ساقها الجدليون وأهل الخلاف ، فدخلت إلى فكره واحتلته وخنقت الأصوات الطبيعية التى تنبعث فيه منادية إلى الأوليات والمبادئ الفطرية دائماً . بل إنى أدعو كل ذى لب وقلب : أن ابتدئ حياتك ! كن طفلاً من جديد ... أنظر إلى الدنيا بعين ريفى أبله فوجئ بزينة المدينة ... إنس ألفاظ الناس وتعاليمهم . إن كثيراً من معلوماتك دخلت إليك وأنت قاصر لا تميز الخبيث من الطيب . إنهم خدعوك فى الحق وخدعوك فى الباطل . فليس كل الحق عندك حقاً ، وليس كل الباطل كذلك ... وقد بنيت أحكامك بعد أن كبرت واستقللت على أشياء لم تتأكد من صحتها ولم تختبرها بكل عقلك وإلمامك . فأعد النظر فى كل شىء تظفر بلذة عظمى : لذة انكشاف حقيقة نفسك ودنياها لك

لقد أتى « ديكارت » أبو الفلسفة الحديثة بالعجب العجاب حين أعاد النظر فى نفسه ودنياها من جديد ... إنه جدد حياة الفكر البشرى كله حين جدد حياة نفسه فهدم كل ما فيها ثم أعاد ما يستحق البناء منه وذرى أنقاض الباطل فى الريح وفى وجه الشيطان ...

سترى الناس لا يسيرون على الجادة ، ولكن يتفرقون على بنيات الطريق ودروبه المسدودة أو الموصلة إلى التيه ... أو أنهم يستديرون وجه الطريق ويستقيلون قفاه ... أو أنهم يتخذون قاع الطريق أدلاء ومرشدين وزاداً ...

إن الطب يدعو إلى صحة الأجسام بتصفية الفضلات والزوائد والأخلاط المضادة ...

فلماذا لا تصفى كل ما فى نفسك لتذهب فضلاتها وزوائدها وسمومها . . ؟

إن هذا يذكرك نفسك دائماً ولا يدعك تذهل عنها بالاشتغال بقشور حياتها وبالنزاع الكاذب عليها ، ولا يشغلك عن مواكب الحياة التى تمر أمامك فى كل لحظة

إنه مسح لزجاجتها حتى تكون شفافة صادقة الوصف والنقل لما وراءها ...

والذهول عن النفس بالخبز والذهب والحديد ، تفقد لها وإهدار لحياتها الحقيقية ، وسوء فهم لطرق إمتاعها . وإن طعم الحياة لا يذاق إلا بالتيقظ الدائم لها فى كل لمحة ونفس

والانسانية هى هذه النقطة ، لأن الحيوان فى ذهول دائم يسير مكباً على وجهه لا يتيقظ إلا إلى مشتهاه . ولذلك غلب الذهول عن الشئون الوضيعة ، على عقول الفلاسفة والفنانين الصادقين ، لأنهم دائماً فى شغل بصيد الخواطر التى تقفز وتحوم حول حواسهم وأفكارهم

ومتى ابتدأت حياتك شعرت بنفسك ثم شعرت بيد قاهرة خفية تدفعك من غير إرادة منك ولا استشارة لك إلى هذه الدار العجيبة الكبيرة الهائلة : الدنيا . وتلك اليد هى مناط الايمان . يحن العقل ولا يستطيع أن يتصور أن الطبيعة خالية منها أو خارجة من طوعها ...

فالإيمان أن تقذف بنفسك دائما فى أحضان هذه القوة القاهرة الحامية لحقائقها وقوانينها وأن تكون معها كما يكون الطفل مع أبيه: يلوذ به ويعوذ، ويعتز ويفرح، ويفتخر وينتسب.

الإيمان هو استمداد القلب قوته وحياته من واهب الحياة وقيوم الدنيا . فالانسان به مسند ظهره إلى جدار السموات والأرض ، مُحتَم بقوانينها ، مسلط عليهما ، سائر دائما فى صف مجدها وحقهما : مجد الحياة وميزان العمل فيها ، شاعر أنه قوة خادمة الإلهية عاملة ناصبة للتعمير وإقرار الحياة فيهما ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم الأكبر ، تتجدد فيه الحياة بتجدد خواطره ويتدفق فيه فيض مستمد منها يحيا به كل الحيوات ...

ثم هو فى مخاطبة دائمة مع المشيئة الغالبة العالمة المبدعة التى تلتقى عندها الخلائق

وإن إدراك معنى من معانى الالهية فى خفقة من خفقات الروح أمر يحطم الحدود الضيقة التى يعيش فيها الانسان ، ويجعله يتسع للعالم كله ، فيرى الخلائق جميعها تلتقى وتزدحم وتنصب فى قلبه ... فمن من المتأملين لا يريد أن يرى الدنيا جميعها فى لحظة خارجة عن حدود الزمان ؟

من منكم يا راصدى الدنيا يأبى لنفسه هذا الاتساع وهذا الادراك لكل شئ فى موضعه الحقيق بين يدى الاله ، سواء أكان صغيرا صغيرا كالذرة ، أم كبيرا كبيرا كالمجرة ؟!

قولوا ياموصدى أبواب العلم فى وجوههم وفى وجوه الناس !

أجيبوا يا مدمرى سعادة الانسان ومهدرى معناه ومضيعيه فى الأشواك والصخور بين السمالى والغيلان !

أجيبوا يا مشرديه فى أودية التيه ، وخاطفيه من أحضان أبيه وقاذفيه إلى قرار اللعنات والطرد والحرمان والفقد الذى ليس معه عزاء !

أجيبوا فانى لا أفقه ما ترمون إليه إلا أن تكونوا قطاع طرق الرحمة ومطاردى الانسانية من فراديس سعادتها .. ولن تكونوا بذلك إلا شياطين ممسوخة لا تظهر فى أثوابها ، أو مأجورين للشياطين تدفع لهم أجورهم من الشهوات !

أجيبوا يا باحثين عن فراديسهم وهى فى قلوبهم ... ولكن بينهم وبين أن يعيشوا فيها شئ واحد : هو أن يؤمنوا أنها فى قلوبهم قبل أن يروها وبعد أن يروا الحقيقة الكبرى التى تملأ الأكوان فلا يجحدوها ...

أجيبوا ياصانعى الألفاظ ومبلبلى خواطر الناس وجالبى شقائهم الدائم بالعمى عن كل شئ يضيء والصمم عن كل شئ يصيح !

إنهم يبحثون عن سعادتهم فيما وراء قلوبهم، ولذلك يهدمون كل شئ ويقتلعون كل شئ من مكانه ويفتحون كل « قمقم » كما يفعل الذى يبحث عن متاع ضائع ثمين أليم الفقد ...

كل هذا لأنهم اخترعوا طائرة وسيارة وراديو وتلغراف . . لذلك أغضوا عن البعوضة والبعير ، ونسوا خالقهما وما بينهما .. نسوا الذى اخترع الآلة العجيبة التى فى رؤوسهم ، وهى التى اخترعت هذه الأعاجيب التى بها يفتتنون ..

يقول توماس كارليل ما معناه « إن رفع اليد إلى أعلى لا يقل عجباً عن طيران جسم فى الجو، وسماع الصوت من قرب لا يقل عجباً عن سماعه من آخر الأرض »

فالمبدأ المعجز موجود منذ الخليقة يراه كل ذى فكر يعبد الحق الأصيل ولا ينساه إذا رأى عجا كاذبا له

* * *

والإيمان وصاية واسعة المسئولية على كل شيء : يشمل رعاية النفس والقربى والرحم والوطن والانسانية والحيوان والجماد ... نعم الجماد فله على المؤمن أن يضعه موضعه فى الفكر وأن يجمله ويسخره ويتأمله ويسبغ عليه من حياته هو ...

فالمؤمن ليس فرديا أنانيا ضيقا حياته له وحده . حتى عياله ؛ إنه يلدهم لجيش المبدأ الذى يعمل له ، هو متجرد من سلطان كل شيء ، لأن معه كل شيء ؛ إذ كان على موعد مع ما يفنى منه هنا حيث يتلاقيان عند ملتقى كل شيء، عند الله الذى إليه تصير الأمور فله عين ممتدة البصر وراء الفانى تصير معه وتعرف مقره النهائى ؛ فلا يشعر فقده ولا يحرم رفده لأنه معه على اتصال فيما وراء الحجب والكثافات ... فأيما سمو وخلود للنفس يشبه هذا فيما بين يدى عشاق الخلود من الفنانين والعلماء ؟ فمن يتبع الخلود فليلتمسه عند ملتقى كل شيء وكل ظل وكل ضوء وكل صوت .

ما بين المؤمن وبين الالهية شيء من الحب لا يقاس معه شأن آخر من شئون الحب فى قليل ولا كثير ... لأنه يدرى أن أباه

الحقيقي هو واهب الحياة وحافظها والقائم عليها والمنظم لآلاتها في جسده. وليس لأبويه من ذلك الحب شيء إلا لأنهما سبيل شعوره بهذه الرحمة والحب من الالهية التي أوجدته ليتمتع بأفانين الدنيا وأفانين النفس، وإنه ليرجع إليه في كل أمر سار أو ضار بفرح طفل أو حزنه، وإنه ليدري أن لضحكه ودموعه صدى عنده. وشتان بين معتقد هذا وحسه وبين من يرى نفسه وحيداً بين معارك الدنيا وحرب الشر والخير، ليس معه عين أبيه ترعاه!

إن الثاني يدخل إلى الدنيا ويراها داراً من غير صاحب يملكها ويتعهدها. فهي عنده شيوع ليس لأحد فيها حرمة إلا بمقدار قوته، فيأخذ منها جهرة إن وسعه الجهر، وخلسة إن أحس القهر. لا حدود أمام أطماعه. وأطماعه غير محدودة، والانسانية عنده قطعان آبدة متوحشة لا رحمة بينها ولا حب إلا في نطاق الضرورة.

وأي شقاء للنفس إذا لم تعرف أن للدنيا مالكا! إنه شقاء يوحي بالجريمة في صور فظيعة فاجعة كجريمة «نيرون» في حرق «روما» بأهلها. وكجرائم «جوف فوشيه» وزير نابليون، الذي استعمل كل ذكائه في التنكيل والتخريب وخدع نفسه إذ كتب على قبره «الموت نوم أبدي»، وكجرائم الفوضويين والمعطلين والدهريين الذين يرتكبون كل شنيعة على حساب العدم

* * *

لايدخل نفس المؤمن شيء إلا بعد استئذان إيمانه. وما عرفت سلطاناً لشيء على النفس مثل سلطان الايمان كما غرسه وعمقه القرآن. وإن النفس لتلاق به كل شيء، فان كان من عوامل البطش استمدت من جبار السموات مدداً عليه، وإن كان من عوامل الرحمة استمدت من الرحمن صوراً من رحمته

وإن المؤمنين ليصبرون على غزو الشبهات لهم ولا يدعونها تصل إلى قلوبهم. وهم أكثر الناس انقذافاً بالشبهات لأنهم ليسوا أغبياء ولا عجزة مغفلين عما في الدنيا من الأحاجي والألغاز؛ فعقولهم دائماً في احتكاك مع حقائق الحياة وما فيها من الآراء والمذاهب والأديان وفي تعجب دائم قد يصل بهم إلى درجة الحيرة «ولم تزل الحيرة شيمة العارفين»

ولم أر إلا واضعاً كف حيرة على ذقن أو قارعاً سن نادم

* * *

نهاية إدراك العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
قالوا وقلنا دعاوى ما تفيد لنا إلا الأذى واحتجاجاً في المداجاة

وإنهم ليعلمون أن الله راض لهم الفتنة ليصفيهم، ولا يأخذ منهم إلى قدسه وسبحات عرشه إلا من يثبت على اتجاهه إليه برغم حجب الغيب الكثيفة من جهة وبرغم أضاليل الحياة وتناقض بعض صورها في ظاهر بعض العقول القاصرة، وبرغم همزات الشياطين ونزغهم «وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون»

«إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون»

وإنهم ليكتمون ما عساه يصيبهم منها في صدورهم علماً منهم أنها أمراض طارئة في عصر الشك الذي يصيب كل باحث كما أصاب الغزالي أبا الزهد والمعرفة حتى تكسرت عنه العقائد الموروثة كما يقول في كتابه: «المنقذ من الضلال»، فيرون تحصين الناس منها حتى تبرأ قلوبهم ويهديهم الله إليه بعد جهادهم فيه، فيعرضوها بعد ذلك مع دوائها وبراهين كذبها وبطلانها وعلماً منهم كذلك أنهم ما أوتوا علمهم كل شيء، وأن أساطين العلم المادي لم يعرفوا إلى الآن ما هي المادة التي هي أول ما يدرك.. دع عنك ما خفي في عالم الآفاق وعالم الأنفس، وعلماً منهم كذلك أن أكثر الناس ليسوا مثلهم متفرغين للتفكير في الحقائق ومقابلة بعضها ببعض، وإنما أكثرهم يأخذون الحقيقة أو الشبهة أو الأضلولة فيؤمنون بها طول حياتهم، وقد يموتون عليها إلا أن يتداركهم الله بمن يغسل قلوبهم من الشبه والأضاليل

* * *

تلك ذخيرة الايمان في قلب! فأين منها تفريغ الالحاد للقلوب من كل معاني عزائها وهنائها ونورها وخلودها؟ أين منها ملؤه لها بكل معنى أدنى أو تافه أو فان؟ يا ويل من أراهم فارغي القلوب وقد صاروا الآن لا عدد لهم!

لقد ضاعوا لأنهم فقدوا ميراث عزائهم ولم ينالوا الدنيا

وعندي أن كل ملحد واجب عليه إخلاصاً لالحاده أن يكون مجرماً سفاكا أنانياً وحشياً حتى يحقق مقتضيات إلحاده

فلا فائدة من الأخلاق والعلوم والبدوات ما دام القلب فارغاً من الله . وقد قلنا فى مقال « حرمة البيان » « ما هو الحق ؟ ما هو الشرف ؟ لولا الله ، كل المعايير ساقطة باطلة مبلبلة إذا لم تكن فى يده هو . . . كل الصدق كذب ... وكل الخير شر ، إذا لم يقله لنا هو ... ! »

لعمر الحياة لو كان الايمان كذباً لكان أبلد من الصدق ! وما دام الانسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما هنا ؟ لماذا يخطئ معنى دوامهما ؟ افرضوه كذباً ... فهل برئت حياتكم من الكذب ؟ إنها مجرعة أكاذيب مات منها حكاؤكم غيظاً أيها الناس !

إنه قياس أدركه الأقدمون واختار العقلاء منهم ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولي فالخسار عليكما

وما دمتم تقيسون قيمة الشيء بالمنفعة ، فأيما شيء أنفع من معنى الأيمان فى حياتكم ؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية . وقصة تقدم الانسانية هى قصة المؤمنين منها ؛ فانهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة لأنهم أحسوا الايمان بالقيوم الأكبر فأحسوا الوصاية نيابة عنه على القطيع القاصر ، وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الجليدين الضليعين الذين لم يستول عليهم ضعف البشر لأنهم أولو العزم الذين فى قلوبهم ذلك المعنى الحديدى الذى لا يفلت منه شيء : وهو الصبر ! « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » فكل معانى شرف الانسانية شعب وفروع من تلك الأرومة

ولذلك لو تغيرت فكرة الالهية يجب أن تتغير موازين الخير والشر . ولكن فى صدر الانسانية إيماناً عميقاً بالخير من غير سبب ظاهر ، وكفراً عميقاً بالشر من غير سبب ظاهر ؛ وقد أدى ذلك الفيلسوف الانجليزى « باركلى » إلى أن يأخذ من هنا برهانه على أن هناك عقلا أعظم قد أقر موازين الخير والشر فى القلوب كما هما ، لأن الخير والشر عنده كذلك

« الرستمية »   عبد المنعم خلاف

التعليم والمتعطلون فى مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

هناك غير ذلك حب التضحية والايثار ، وفى هذا يقول الله فى كتابه الكريم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وهذا يستلزم أن يمرن الفتى أو الشاب أو الرجل على عمل الخير والاحسان إلى الغير فى القول والعمل وأن يقلل من التفكير فى شخصه ومصلحته الخاصة . وأن يتعفف عن العمل لنفسه فقط . وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » ويقول سنيكا : « لو أعطيت الحكمة كلها لنفسى على أن أستأثر بها وأمنعها عن إخوتى بنى الانسانية لكرهت الحكمة »

ولا شك أن تمرين الانسان نفسه على حب غيره ومساعدته مع التقليل من حب نفسه يدفعه إلى الاحسان المستمر . وإلى البذل ثم إلى التضحية وإيثار غيره على نفسه . وهو أعلى مراتب السمو الانسانى .

ومن أحسن الامثال التى يمكن أن تضرب فى التضحية والايثار ما قرأناه عن أمة اليابان الفتية وإقدام أبنائها على بذل المهج والتضحية بالنفوس فى سبيلها . من ذلك أن الحكومة أعلنت عن « طوربيد » اخترعه أحد المخترعين يستلزم دخول إنسان فيه يوجه إلى هدفه إذا ماقذف ، فاذا اصطدم بالهدف بارجة كان أو نسافة أو غواصة انفجر بمن فيه فتتله فى الحال . ولكنه فى الوقت نفسه يفتك بهدفه فتكا ذريعا ثم أعلنت عن حاجتها إلى أربعمائة شخص لهذا الغرض المهلك . فتقدم إليها سبعة آلاف شاب يطلبون تلك التضحية عن طيب خاطر . وفى تاريخنا الاسلامى أمثلة كثيرة من التضحية والايثار فلقد ورد عن سيدنا على بن أبى طالب زوج فاطمة ابنة الرسول أنه قال لها يوماً : جهزى لنا طعاماً . فقالت : والله ليس عندى غير الماء . فقال لها : إذن أمسك اليوم صائماً . ثم قال لها فى اليوم التالى : جهزى لنا طعاماً يافاطمة . فقالت : والله ليس عندى غير الماء . فأمسك صائما ثم تكرر ذلك فى [illegible] . وفى اليوم الرابع خرج إلى السوق